

— عمارة الفقيه وعبد الملك بن مروان *

قالُ عمارة الفقيه :

كنتُ أجالسُ عبدَ الملكِ بنِ مروان^(١) كثيراً في ظلِّ الكعبة ، فبينما أنا معه إذ قال لي : يا عمارة ، إن تَعِشْ قليلاً فستَرَى الأعتاقَ إلى مائة ، والآمالَ نحوى ساميةً ، وإذا كان ذلك فلا عليكَ أنْ تجملني لرجائك باباً ولأمكِ ذريعة^(٢) ، فوالله إن فعلتَ لأملأنَّ يديك غبطةً ، ولأكسوَنَّك نعمةً سابقةً .

ثم إن عبدَ الملكِ سارَ إلى دمشق ، وصارت إليه الخلافة ، فخرجتُ إليه زائراً ، واستأذنتُ فأذنَ لي ، ودخلتُ فسلمتُ عليه ، فلما انقضى سلامي ، قال : مرحباً بأخي ؛ ونادى أحدَ غلمانه ، فقال : بؤنة^(٣) داراً ، وأحسنِ مهاده ، ونزّهه ، وآثره على خاصتي .

فقبل ، وأقتُ عنده عشرين ليلةً أحضرُ غداه وعشاءه ؛ فلما أردتُ الانصرافَ والأوبةَ إلى أهلي أمرَ لي بعشرين ألفَ دينار ومائتي ألفَ درهم ، ومائة ناقةٍ برقيقها وكسوتهم ، وقال لي : أتراني يا عمارة ملأتُ يديك غبطةً ؟

قلتُ : يا سبحان الله ، يا أمير المؤمنين ؛ وإنك لذا كِرَ لذلك ؟ قال : نعم ! والله لا خيرَ فيمن ينسى ما وعدَ به ويذكر ما أوعد^(٤) . كم لهذا الأمرِ يا عمارة ؟

* غرر الحقائق : ١٥٨ .

(١) من أعظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ في المدينة واستعمله معاوية عليها ، وانتقلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٨٦ . (٢) سبياً . (٣) يؤتمه : أنزله . (٤) الوعد في الخير والإيصاد في الشر .

قلت : والله لكانه بالأمس ، وله دهرٌ يا أمير المؤمنين ! قال : فوالله ما كان ذلك
عن خيرٍ سمعناه ، ولا حديثٍ كتبناه ، ولا أثرٍ رويناه ؛ غير أنى عقلتُ في الحدائثِ
أشياء رجوتُ أن يرفعَ اللهُ بها درجتي ، وينشرَ بها ذكري .
قلت : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : كنت لا أشاري ، ولا أماري^(١) ،
ولا أهتك سترَ الله دُوني ، ولا أرتكبُ محرماً حظه الله عليّ ، ولا
حسدتُ ، ولا بغيتُ ؛ وكنتُ من قومي واسطة القلادة ، وكنتُ أكرمُ جابسي
وإن كان ذمياً ، وأرفعُ قدرَ الأديب ، وأكرمُ ذا الثقة ، وأداري السفية ،
وأرحمُ الضعيف ، فبذلك رفعَ اللهُ قدري . يا عماره ، خذْ أهبةَ السفر ، وامض
راشداً .

(١) المشارة : الملاحة ، أولاً يشارره من الشره فقلبت لإحدى الرايين ياء ، المهاراة : المحاصمة
في الشيء ليس فيه نعمة . أو لا يماري : أي لا يدفع ذا الحق عن حقه .